الباب، وأشار..، وتلفّتوا ينظرون، كانت إصبعه النحيلة الجافّة التي مدّها أمامه، تومئ إلى باب الصفا من المسجد الحرام. * * * فهل كانت عصا ساحر تلك الإصبع العجفاء[109]، تشير فتسير الأُمور على ما تشير؟ أم قد نزلت على الفريقين حينئذ سكينة من السماء؟ أم تبدّلوا أُناساً بأناس؟ في طرفة عين، انقلب الوضع من حال إلى حال، بخلاف ما كان ينبئ السلوك العام، من لحظات ومن بضعة أيام، زال التوتر المسيطر على النفوس، ارتخت الأعصاب، انبسطت الأسارير[110]، استضاءت الوجوه، أخذت الملامح المعقدة الكَدِرة[111] ترقّ وتروق. انقشع[112] العبوس انقشاع ضباب الصيف عند ارتفاع ضحوة النهار. * * * ولانت العبارات كما لانت القَسَمات، رقّت الكلمات، تنغّمت الأصوات، أقد طافت بالمكان نسمة ابتسام؟ فها هو جرس الأحاديث الذي كان، منذ قليل، يهدر ويزمجر، ما لبث أن تغيّر. إنّه الآن منغوم كنشيد، ناعم كتغريد[113]، على وَنىً[114] وترفّق يسبح إلى الأسماع.